مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 04 العدد: 02 سبتمبر 2021 ص ص: 472-485
ر ت م د (ISSN): 2602-618X /ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

العلاقات المغربية الاسبانية إثر الاستيلاء على خزانة الأمراء السعديين

Moroccan-Spanish relations following the seizure of the treasury of the Saadian princes

بن سدات نصرالدين ♦

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد bensadatn1@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/31	تاريخ القبول: 2021/08/15	تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص باللغة العربية:

إن الحديث عن العلاقات المغربية الاسبانية على خلفية الاستيلاء على خزانة الأمراء السعديين، يدل على أن ما قام به الاسبان تجاه المغرب يعتبر استمرارا لذلك الصراع بين المسيحية والإسلام للقضاء على حضارة العرب وثقافتهم، إما بالإتلاف أو السرقة، أو الطمس والتشويه، وهذا بالضبط ما وقع مع جزء بسيط من ثقافة المغرب من خلال الاستيلاء على مجموع كتب الخزانة الزيدانية السعدية التي حوت نفائس المخطوطات، ما جعل العلاقات تأخذ منعرجا حاسما وخطيرا في تاريخ العلاقات بين البلدين.

الكلمات المفتاحية:
الخزانة السعدية؛ المخطوطات؛ المنصور الذهبي؛ العلاقات المغربية الاسبانية؛ الإسكوريال.

Abstract: the Moroccan-Spanish relations after the seizure of the treasury of the Saadian princes, indicates a continuation of conflict between Christianity and Islam to eliminate Arab civilization and its culture, either by destruction, theft or obliteration and distortion, and this is exactly what happened with a small part of The culture of Morocco through the seizure of the Zaydani Treasury books collection, which contained the most valuable manuscripts, which made the relations take a dangerous turn in the history of relations between the two countries

♦ المؤلف المرسل

Keywords: The Saadian Treasury; Manuscripts; Al-Mansour Al-Dhahabi; Moroccan-Spanish Relations; Al-Escorial.

مقدمة:

يعتبر الكتاب العربي المخطوط جزءا من تراث الأمة العربية الإسلامية، وهو وثيقة هامة من وثائق وجودها الحضاري، ونمط من أهم أنماط أوعية المعلومات التي يحتاج إليها المجتمع للرجوع إليها واستخدامها لمعرفة الماضي، ورصد وقائع وأحداث الحياة بجوانبها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والدينية.

وفي المغرب اهتم أهل العلم والأمراء منذ القديم بتأسيس المكتبات وخزائن الكتب وصناعة الورق وتجليد الكتب، وبرعوا في هذه الفنون، حتى يذكر أنه بات كل كاتب أو باحث أو عالم أو فقيه يزاول هذا العمل الورقي والتغليفي والتجليدي لوحده، وحرصوا كل الحرص للحفاظ على مؤلفات العلماء والفقهاء والمفتين والقضاة، وإقامة علاقات طيبة مع عدد من الدول الإسلامية والمسيحية في مختلف المجالات وخاصة ما تعلق بالموروث الثقافي والحضاري[1]. ولعل الخزانة الملكية السعدية واحدة من الخزائن التي حوت نفائس الكتب والمخطوطات.

1- **التعريف بالخزانة الملكية السعدية:** تعتبر خزانة السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي[2] كبرى خزائن السعديين[1]، حيث ازدهر التأليف ونسخ الكتب وتداولها في

1-- إن ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية من تراث مخطوط مقارنة بما خلفته الحضارات القديمة خصوصا منها اليونانية واللاتينية، يعتبر أضخم تراث علمي وأعظم ميراث فكري عرفه تاريخ مختلف الحضارات الإنسانية. ولأسباب تاريخية وظروف سياسية ودواع علمية أصبحت الشعوب غير العربية تملك من هذا التراث المخطوط أكثر مما يملكه ذووه الذين سهروا على وضعه وتأليفه، وواصلوا سواد الليل ببياض النهار من أجل الحفاظ عليه وصيانته، فأفادت منه الحضارة الغربية أيما إفادة، ولولا ما احتوى عليه هذا التراث من معارف وعلوم تم نقلها من التراث الإنساني القديم، وما وضع عليه من شروح وما أضيف إليه من إضافات علمية شهد المنصفون من الغربيين بأهميتها لتأخرت الحضارة الغربية قرونا عدة.

2- أبو العباس أحمد المنصور بالله بن محمد الشيخ المهدي، هو سابع سلاطين المغرب من الأشراف السعديين، ولد عام (956هـ/1549م بفاس وتوفي عام 1012هـ/ 1603م) بنواحي فاس، تعتبر فترة حكمه أزهى عهود المغرب والحكم *السعدي* رخاءا وعلما وعمرانا وجاها وقوة. وسبب تسميته بالذهبي يقال: إنه لما أفاض الله من الذهب على أيامه من غنائم السودان وتجارتهم، حتى صار الذهب أكثر المعاملات،

مختلف التخصصات وازدهرت الحياة الثقافية وتعددت المراكز التعليمية، وقد أفضت الخزانة الملكية السعدية قبلة ومنارة لكثير من طلبة العلم والعلماء، حيث ضمت آلاف المجلدات الثمينة وبلغ عدد كتبها حوالي 32.000 كتاب ، وقد وصف الإفراني[2] مؤسسها السلطان أحمد المنصور بأنه كانت له عناية تامة باقتناء الكتب، والتنافس في جمعها من كل جهة، فجمع من غرائب الدفاتر ما لم يكن لمن قبله، ولا يتهيأ لمن بعده مثله.

وقال الفشتالي عن خزانته السلطانية:" اشتملت على عدد جم من تصانيف أهل العصر في كل فن، حتى في الطب والهندسة"[3]، وهناك شهادة أخرى من العلامة المقري الذي قدر عدد كتبها بما ينيف على مائة مؤلف في خصوص الموضوعات المدونة برسم الخزانة المنصورية"[4]

ورواتب الجند وغيرهم. الإدريسي .محمد الإمام بن ماء العينين الشريف الإدريسي الشنجيطي، الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط؛ ج1 ص 19.

1- يذكر أن أحمد بابا التنبكتي استفاد كثيرا من خزانة المنصور في تأليفه كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" وكذلك أحمد الحجري اعترف بأن المنصور كان يفيده بكتب خزانته. وورد أيضا أن أبا جمعة أعاره السلطان احمد المنصور 500 كتاب أخرجها من خزانته، حتى يفيد منها العلم المراكشي في تأليف شرح "درر السقط في مناقب السبط" لابن الآبار، وقد كان لثلاثة من أبناء المنصور خزائن أسسوها في عهد والدهم، وهو من الدلائل القوية على ضخامة الخزائن المغربية في عهد المنصور السعدي. محمد.حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية؛ ج1 1977م. ص185.

2- يقول الإفراني في حق "المنصور الذهبي:"ومما تميز به تيها وعجبا خزانته على سائر الخزائن الملوكية، تآليف الفاضل العلامة الراحل "أبي جمعة سعيد ابن مسعود الماغوسي" التي منها "شرح لامية العجم" أملى بعضه أو كله في المشرق وهذبه في المغرب وخدم به "المنصور" وله شرح على درر السمط "لابن الأبار"، إلى أن قال: "وكانت "للمنصور" عناية تامة باقتناء الكتب والتنافس في جمعها من كل جهة. الافراني محمد الصغير: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، ط1، 1998 ، ص: 122.

3- الفشتالي.أبي فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة. الرباط ص 304.

4- المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد.، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط ص ص: 69-70.

كما تحدث المؤرخون عن سر التطور الذي حصل في مكتبات وخزائن السعديين[1]، وأرجعوه إلى الاستفادة من العلاقات الودية التي كانت تربط الدولة بالشرق والغرب، وفيما يذكر العابد الفاسي[2] أن السلطان أحمد المنصور الذهبي كان يصانع النصارى [3] بإسبانيا للتوصل إلى الخزائن العلمية الأندلسية، وما كان يبلغه خبر مصنف أو مؤلف في المشرق أو في المغرب إلا ويرسل إلى مصنفه أو مؤلفه ليبعث به إليه.

وبهذه السياسة ترادفت على السلطان الذهبي الكثير من الهدايا والكتب من كل حذب وصوب، من ذلك " البحر الزخار والعيلم التيار في أخبار الأوائل والأواخر" لمؤلفه مصطفى بن سيد حسن بن سنان الجنابي ت 999 هـ/ 1590م [4]، و"شرح توضيح ابن هشام"، والذي قدمه مؤلفه أبو بكر الشنواني للخزانة المنصورية، كما أن بعض أكابر المسيحيين الغربيين قدم للمنصور مصنفا طبيا مكتوبا بلغة أجنبية يترجح أنها اللاتينية. وكان السلطان السعدي يوفد البعثات للقاهرة والأستانة بقصد شراء الكتب واستنساخها، ويبذل فيها التعويضات السخية، وكانت هذه الخزانة مفتوحة في وجه الباحثين [5]. وقد ضمت دراسات في مختلف المجالات وبلغات متعددة منها التركية والفارسية واللاتينية.

وعلى الرغم مما أصاب المغرب من فتن وحروب داخلية كانت بين الإخوة الثلاثة السعديين، وتهديدات الثائرين المغاربة المتطلعين إلى الحكم، وتغير المعطيات الخارجية، وتهديد الأسبان بالاستيلاء على الموانئ المغربية، فقد ظل الأمير زيدان السعدي محافظا على هذه الخزانة، ولم يكن أقل من أبيه اهتماما بالعلم، بل كان فقيها

1-- كانت لهجرات المتوالية لعلماء الأندلس إلى المغرب الأثر الكبير في نشر وتطوير الحركة الثقافية في المغرب وإثراء خزاناته بالكتب والمخطوطات إما عن طريق التأليف و الترجمة أو الاستنساخ أو التبادل أو الاقتناء. كما أن الاستقرار السياسي في القرن السادس عشر جعل العديد من علماء "المشرق والمغرب لا يدخرون جهدا في تأليف ونشر ونسخ مؤلفاتهم، ما ساعد على انتشارها في جميع الأقطار. كنون عبد الله ، رسائل سعدية، دار الطباعة المغربية، تطوان، ص 241.

2- محمد العابد الفاسي، الخزانة العلمية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط، 1960م، ص39 .

3- صانعَ يصانع، مُصانَعةً، فهو مُصانِع، والمفعول مُصانَع يقال صانع الرَّجُلَ: داهنه ولاينه، داراه وخادعه. الفيروزبادي مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد ، دار الحديث القاهرة، ط2008، ص951.

4-الدغيم محمود السيد. فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية في مكتبة راغب باشا، مؤسسة السقيفة العلمية للنشر، جدة، ط1 2016 ، ص347.

5- حجي محمد: المرجع السابق، ص185.

مشاركا في العلوم،واستمر يربط الاتصالات في سبيل جلب الكتب، وظل مع سياسة السلم والمهادنة تارة، والتهديد تارة أخرى، حتى كانت حادثة استيلاء الأسبان على خزانة الأمراء السعديين، فأخذت العلاقات منعرجا حاسما وخطيرا في تاريخ العلاقات بين البلدين. فما هي الظروف التي تم فيها الاستيلاء على هذه الخزانة .وكيف كانت آثار هذا الحدث على مسار العلاقات المغربية الاسبانية ؟

2- **الاستيلاء على كتب الخزانة** الزيدانية السعدية.

إن مما لا شك فيه أن الاستعمار تتعدد أنواعه وأساليبه المطبقة في أي قطر من الأقطار من دولة لأخرى، بين التهجير والاستيطان من جهة، والقتل والتخريب والاستعباد من جهة أخرى، لكن الأمر الذي يتفق عليه الجميع، أن أشد أنواع الاستعمار ذلك الذي يستهدف بالأساس ثقافة الشعوب وحضاراتها وتاريخها وفكرها، إما بالإتلاف أو السرقة، أو الطمس والتشويه، وهذا بالضبط ما وقع مع جزء بسيط من ثقافة المغرب من خلال الاستيلاء على مجموع كتب الخزانة الزيدانية السعدية التي حوت نفائس المخطوطات التي جمعها السلطان أحمد المنصور الذهبي.

بطبيعة الحال لسنا في حاجة إلى وصف الحالة السياسية التي كان عليها المغرب في بداية القرن السابع عشر، من صراع على الحكم بين الأمراء السعديين،وبين المتطلعين إلى الحكم من المغاربة من جهة أخرى، لكن تجدر الإشارة إلى أنه في ظل هذا الصراع انتقلت بعض كنوز المغرب إلى إسبانيا [1]، ولعل حادثة قرصنة الخزانة السعدية خير دليل على ذلك.

قصة الاستيلاء على هذه الخزانة تعود إلى عهد السلطان المغربي زيدان بن أحمد المنصور الذهبي السعدي والذي عاش أثناء فترة حكمه التي امتدت ما بين(1603 و1628)

1- من الأسباب الأساسية التي أدت إلى نقل هذه الكنوز العلمية إلى بلاد إسبانيا، الصراع على الحكم بين الأمراء السعديين، وبين المتطلعين إلى الحكم من الثائرين المغاربة، فلولا حملة أبي محلي واستيلائه على مراكش، وفرار زيدان منها إلى أغادير، ولولا التجاء أخيه المأمون إلى إسبانيا وتسليم العرائش لهم، وانتشار أسطولهم في عرض المحيط الأطلسي لما وقع ما وقع، ولبقيت خزانة زيدان بقصر البديع بمراكش، عوض إيداعها أقبية الأسكوريال. بنين أحمد شوقي: دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي الداوديات، مراكش، ط2، 2004، ص180.

صراعات بين إخوته على الحكم[1]، بالإضافة إلى التهديدات البرتغالية والإسبانية والعثمانية على المغرب حينها، وهي الضغوطات التي كانت تدفعه أكثر من مرة إلى التفكير في مغادرة الحكم باكراً.

في عام 1612م وبعد أن خرجت عن طاعة السلطان زيدان بن أحمد المنصور الذهبي أركان المغرب كلها، خصوصاً لدى قيام ثورة أحمد بن عبد الله ابن أبي محلي سنة 1612م[2]، اضطر السلطان زيدان أن يرحل من مقره بمراكش في اتجاه مدينة أجادير عن طريق ميناء آسفي على المحيط الأطلسي، حاملاً معه أمتعته وخزانة كتبه .

وفي آسفي استأجر سفينتين: **الأولى هولندية** لنفسه وخدمه وحشمه وبعض من بقي معه من الجند المخلصين، **والثانية فرنسية** تدعى (Notre Dame de la Garde) لتحمل كل أمتعته التي فر بها من بينها التاج والصولجان وخزانة كتبه، مقابل ثلاثة آلاف مثقال ذهبي (3000) يتقاضاها رئيس السفينة الذي هو القنصل الفرنسي دوكستلان De Castellane والذي أقنع زيدان السعدي فيما قبل بتوقيع معاهدة مع فرنسا تمكن المغاربة والفرنسيين من المتاجرة في كل شيء بما في ذلك الأسلحة. وبموجب هذه الاتفاقية وفي إطارها تم التعاقد مع السفينة الفرنسية لحمل الكتب، وبعد وصول السفينتين معا إلى ميناء أجادير رفض دوكستلان إفراغ مركبه قبل أداء الثلاثة آلاف المتفق عليها.

1- الافراني، محمد الصغير، المصدر السابق ص ص 282-283.

2- من الأعلام الذين ارتبطت بهم حكاية السلطان زيدان السعدي وخزانته الشهيرة، نذكر أساسا الثائر أحمد بن عبد الله السجلماسي العباسي الفيلالي الملقب بابن أبي مَحَلّي(1560 – 1613 م). هو فقيه صوفي ولد بسجلماسة، ونشأ وتعلم في فاس، التي غادرها وهو في بداية مراهقته، ولم يعد إليها إلا بعد انتصار المغاربة في معركة وادي المخازن وعمره 18 عاما، لما ثار أبو محلى على إثر تسليم العرائش للدولة الإسبانية من طرف المأمون بن أحمد المنصور واستولى على سجلماسة ودرعة، ووصل إلى جبال الأطلس المحيطة بمراكش، أحس زيدان السعدي بالخوف وفقد الأمن، فعزم على مغادرة مراكش في اتجاه مدينة أجادير عن طريق آسفي مستنجدا بيحيى بن عبد الله الحاحي ليساعده على استرجاع قاعدة ملكه. القادري. محمد بن الطيب ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني". تحقيق محمد حجي واحمد التوفيق ج1..ص 107-108. مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، المغرب، ص93.

وبعد قضاء ستة أيام في انتظار الأداء فر دوكستلان من ميناء أجادير في 22 جوان1612م في اتجاه مرسيليا حاملا المكتبة وباقي أمتعة الملك بقصد تسليمها لحاكمها . .(Duc de Guise) ، وأثناء هذه الرحلة اعترضت أربع سفن إسبانية في عرض المحيط الأطلسي السفينة الفرنسية واستولت عليها بسهولة، وقادتها أولا إلى أحد المراسي البرتغالية وهي مدينة لشبونة، لأن البرتغال كانت آنذاك تحت النفوذ الإسباني قبل أن تقودها إلى إسبانيا لتستقر في دير الإسكوريال بأمر من بابا الفاتيكان.

3- العلاقات المغربية الاسبانية بعد الاستيلاء على الخزانة الملكية السعدية:

إن الحديث عن العلاقات المغربية الاسبانية بعد الاستيلاء على الخزانة الملكية السعدية في عرض البحر في بداية القرن السابع عشر[1]، يدفعنا إلى القول بأن ما قام به الاسبان - بل المسيحيون- أثناء هذه الفترة تجاه المسلمين وتراثهم، لم ينحصر في إطار العلاقات بين المغرب وإسبانيا، بل كان صراعا بين المسيحية والإسلام . إذ باسم النصرانية وفي سبيل القضاء على حضارة العرب وثقافتهم، قرر المسيحيون بعد سقوط غرناطة بسنوات معدودة القضاء على ما تبقى من آثار العرب داخل إسبانيا وخارجها.

2-1 في الداخل: تجلى ذلك بوضوح بعد سقوط غرناطة آخر معقل إسلامي هناك، حيث لم يبق الاسبان من الثراث العربي المخطوط إلا القليل، ولعله لا يتجاوز العشر مما كان موجودا في الأندلس.

وخير شاهد على ذلك الحفل الديني الذي أقيم في مدينة طليطلة عام 1499م، وبأمر من مطرانها المسيحي، حيث أحرقت مئات الآلاف من المخطوطات جمعوها من غرناطة وأرباضها، ومن مختلف قواعد الأندلس الإسلامية، و لم يستثن منها حسب بعض المصادر، إلا ثلاثمائة من كتب الطب، وزع بعضها على بعض المكتبات والجامعات، وأودع البعض الآخر في أروقة قصر الإسكوريال. ولا تزال خزائن الكتب الإسبانية إلى اليوم بما في ذلك مكتبة الإسكوريال، والمكتبة الوطنية بمدريد تحتفظ بمجموعات خطية نقل معظمها من قرطبة وإشبيلية وغيرها من القواعد العلمية الإسلامية. وقد أضيفت إليها مجموعات من كتب "الخاميادو" وهي المخطوطات التي وضعها المورسكيون باللغة

1- العامري محمد البشير حسن راضي، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع الاردن، ط1، 2012، ص 127.

الإسبانية ونسخوها بالخط العربي، يرمزون من خلالها إلى تشبثهم بالهوية العربية وإخلاصهم للثقافة الإسلامية.

2-2 **خارج الأندلس** امتدت أيادي القراصنة الاسبان إلى خزانة زيدان السعدي في عرض البحر واستولت على الخزانة الملكية التي تحوي نفائس الكتب والمخطوطات .

لقد كان للاستيلاء على المكتبة الزيدانية أثر كبير في توثر العلاقات بين المغرب وإسبانيا[1]، وتأرجحت بين الصدام تارة، وبين السلم والحذر تارة أخرى.

4- محاولات استرجاع كتب الخزانة الملكية

بدأت أولى محاولات استرجاع كتب الخزانة الملكية بعد أن استعاد زيدان السعدي ملكه وجعل من قضية استرجاع الكتب ونفائس المخطوطات إحدى القضايا الأساسية، وسعى إلى تحقيق ذلك بمختلف الطرق السياسية والدبلوماسية. إذ بعد فشل فرنسا في محاولاتها لدى البلاط الإسباني لاسترجاع الكتب، وتأكد زيدان السعدي أن فرنسا عاجزة عن إقناع الملك الإسباني بإعادة المخطوطات التي أودعت بالإسكوريال، عقد العزم على التنكيل بالفرنسيين الموجودين في المغرب معتبرا أن التنكيل بهم هو تنكيل بالمسيحيين الإسبان [2].

وعلى هذا الأساس أجاب زيدان الملك الفرنسي لويس الثالث عشر قائلا:" أنت المسؤول عن هفوات رعاياك، وإذا ما توصلت إلى حل المشكل فستكون أنذاك قد قمت

1-. يذكر أن المخطوطات المحفوظة بخزانة مكتبة الإسكوريال بإسبانيا والتي تحتوي على 1870 مخطوطة عربية معظمها كتب طب ورياضيات وآداب مشيرا إلى أنها اختطفت من أكبر خزانة ملكية عرفها المغرب أثناء احتدام الصراع السياسي بين الأمراء السعديين وبين المتطلعين إلى الحكم من المغاربة. اختطفت المكتبة على يد مجموعة من القراصنة الإسبان، ووضعت بين يدي ملك اسبانيا في أواسط القرن السادس عشر الذي أمر بوضعها في قصر الإسكوريال، وأمر بمنع إخراج أي شيء منها امتثالا لأمر بابا الفاتيكان. ويفسر بعض الباحثين هذه القرصنة وهذا المنع بأنه استمرار للصراع بين المسيحية والإسلام. بنين أحمد شوقي،نقل فهرست مخطوطات الإسكوريال إلى اللغة العربية من الوصلات الخفية بين الحضارات في مؤتمر عن «المخطوطات المترجمة» بمكتبة الإسكندرية. 13 جوان 2007 .

2-المكناسي، محمد بن عثمان، الاكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص ص123- 125.

بعمل خليق بسلطان مثلك، وستبعد عن شخصك تهمة لا يقبلها أبدا إنسان في مستواك، وإذا توانيت عن محاولة استرجاع الخزانة فإنك ستتحمل هذه المسؤولية أبد الآبدين.

ولما لم يفده ذلك واقتنع بأن التهديدات التي وجهها لإسبانيا بمختلف الطرق لم تغن شيئا اضطر إلى المفاوضات المباشرة فاقترح على البلاط الإسباني ستين ألف مثقال ذهبي (60000) مقابل استعادة كتبه.

في هذا الإطار تدخلت البرتغال كوسيط لإقناع إسبانيا لقبول العرض المغربي، فقبلت شريطة إطلاق سراح كل الأسرى الإسبان بالمغرب، وهي شروط يستحيل على زيدان السعدي الموافقة عليها ، لأن زيدان لا يحكم إلا جزءا من مغرب ذلك الوقت. تكررت محاولات زيدان طوال مدة حكمه ولكن بدون جدوى إلى أن وافته المنية عام 1037 هـ/1762م.

ولم يتوقف خلفاؤه عن المطالبة بالكتب مستعملين الوعد حينا والوعيد حينا آخر، حيث قتل أحدهم الراهب الفرنسيسكاني "خوان دل برادو Juandel Prado "الذي اعتبر مسؤولاً عن رفض ملك إسبانيا إعادة الكتب.

وبعد تولي الحكم المولى محمد الإبن والخليفة الثالث لزيدان واصل بدوره المطالبة بإرجاع خزانة والده، دون نتيجة، فاقترح على الإسبان السماح لهم ببناء الكنائس في المغرب، ولكن الرد الإسباني كان مخيبا للآمال، حيث اقترح بعض القساوسة وجوب إحراقها على غرار ما صنع بالآثار الإسلامية إثر سقوط غرناطة قبل قرن من الزمان. فقرروا العزم على الاحتفاظ بها لما تحتوي عليه من موضوعات تاريخية متعلقة بالوجود العربي بإسبانيا. وهكذا باءت كل المحاولات السعدية بالفشل ولم يفلح واحد من أبناء زيدان في استرجاع الكتب إلى أن انقرضت دولتهم .

ولم تنته هذه المحاولات بنهاية أسرة السعديين، بل استمر المغاربة يلحون على إعادة تراثهم فيما بعد. فما تم لقاء سياسي أو دبلوماسي، ولا وقعت معاهدة إلا وطالب المغرب بالخزانة .

وبعد اندحار السلالة السعدية قام السلاطين العلويون من بعدهم بجهود كبيرة من أجل استرجاع الخزانة الزيدانية، حتى أن كل السفارات المغربية إلى إسبانيا ظلت تطالب ليس

فقط بإرجاع المخطوطات الزيدانية، ولكن أيضا بكل المخطوطات العربية والأندلسية الأخرى الموجودة بإسبانيا[1].

ولعل من أبرز الدبلوماسيين والسفراء المغاربة الذين زاروا إسبانيا في حقب تاريخية متفاوتة، وقاموا خلالها بالتفاوض مع العاهلين الإسبانيين كارلوس الثاني، ثم كارلوس الثالث من بعده، حول قضية المطالبة بإرجاع المخطوطات المغربية الموجودة في الإسكوريال وإعادتها إلى المغرب نذكر:

* **السفير الأول هو الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الفاسي** الذي كانت سفارته في إسبانيا عام (1011هـ/1690م) على عهد السلطان إسماعيل. ففي العام 1689، وبعدما استرجع المغاربة مدينة العرائش من الإسبان، ووقوع 100 من أفراد حاميتهم في يد السلطان إسماعيل، فكر هذا الأخير أن يعرض على ملك إسبانيا استبدال أسرى الحامية بأسرى مغاربة ممن كانوا في إسبانيا والكتب الإسلامية التي توجد بمكتبة الإسكوريال، فبعث وزيره محمد بن عبد الوهاب الغساني برسالة جاء فيها:" وذلك أن تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب، مائة كتاب عن كل نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة"[2].

وإثر عودة الغساني من رحلة السفارة لدى ملك إسبانيا، كتب كتابا أسماه:"رحلة الوزير إلى افتكاك الأسير"، ويروي فيه تفاصيل ما جرى. إذ يذكر وجود أسرى مغاربة بكل من قادش وقرطبة ومدريد، بينما لم تكن له معلومات واضحة حول الكتب التي كان يفاوض من أجل إرجاعها، والتي تتمثل في جزئها الأكبر من مكتبة الشريف زيدان .

وعلى الرغم مما قاله المؤرخون عن فشل هذه المحاولة فإن المستشرق الفرنسي "دوكستر (de Castries) "يذكر أن المولى إسماعيل قد حصل بالفعل على بعض المخطوطات العربية من الدولة الإسبانية.

* **وفي عهد السلطان محمد الثالث بن عبد الله**، احتلت قضية المخطوطات المغربية مكانة هامة، وكانت المطالبة بالخزانة من بين أشغال سفارتين اثنتين بعثهما السلطان المذكور إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا.

1-العامري محمد البشير حسن راضي، المرجع السابق، ص 127.

2- إدريس خليفة: الفتح الإسماعيلي لمدينة العرائش، ا لعدد 326 شوال-ذو القعدة 1417/ مارس 1997

أولاهما: سفارة **أحمد المهدي الغزال الفاسي** سنة (1179 هـ/ .1766م) حيث قام هذا السفير بزيارة الإسكوريال واطلع على بعض محتوياتها [3]. وقد خص قضية مطالبة الكتب بقوله:"يأمر ملك إسبانيا بإخراجها من المحل الذي كانت به، ودفعت لنا وزدنا على ما صاحبنا من كتب كتبا من غرناطة... إلى أن قال... وذهبنا في هذه الجموع بعد أن قدمنا بثلاثمائة من الأسارى، وجعلنا على رأس كل أسير كتابا من كتب الإسلام أنقذها الله من بلاد الكفر".

وثانيها السفارة التي قام بها **محمد بن عثمان المكناسي** ووضع على إثرها رحلته المعروفة: "الإكسير في فكاك الأسير" ذكر فيها اهتمامه باسترجاع الكتب. يقول بعد زيارته لخزانة الإسكوريال ومعاينة الكتب:"فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحزان بفؤادي نارها، ونادت يا للتراث، فلم يأخذ أحد ثأرها يا ليتني لم أرها"[4].

يتضح جليا من خلال هذه المحاولات التي توالت منذ أربعمائة سنة أن المغرب لم يفلح في استرداد خزانة الإسكوريال رغم الجهود الدبلوماسية التي بذلها من أجل ذلك، وكل ما استرجعه المغرب من مخطوطات بدءا بعهد السلطان المولى إسماعيل من خلال سفارة الغساني ومرورا بسفارتي الغزال وابن عثمان على عهد السلطان المولى محمد بن عبد الله وانتهاء بترجمة فهرست ميشيل الغزيري (ت. 1792 م) في أواسط القرن الثامن عشر للميلاد على عهد السلطان المولى سليمان حيث اعتبرت هذه الترجمة امتدادا لمطالبة المغرب بتراثه الضائع، وهي بعض ما تم جمعه مما بقى من مخطوطات في القواعد الإسلامية السليبة كقرطبة وإشبيلية وغيرها.

ولم يحصل على شيء من كتب الإسكوريال، لأن البابا أمر ألا يخرج من هذه الخزانة أي شيء. ومن يقرأ في فهرس الغزيري الذي أعاده وأتمه ثلة من المستشرقين وهم على التوالي هـ .درنبورغ 1908 (H. Derenbourg) ([والدكتور رينو) D.Renauld ت 1945م وليڤي بروڤنسال ت 1956 (L. Provençal) يجد أن الأربعة آلاف مخطوط التي نصت عليها وثيقة دوكستر نقصت بالنصف حيث إن الصاعقة التي سقطت على الإسكوريال في القرن السابع عشر للميلاد، قد أودت بأكثر من ألفي مخطوط. وأن مجموعة من أهم المؤلفات التاريخية أهديت إلى أحمد المنصور الذهبي السعدي، أو ألفت برسم خزانة كتبه غير موجودة "كمناهل الصفا" وبعض مؤلفات الفشتالي، ومع ذلك فإن الرصيد الذي بقي

3- الغزال، أحمد بن الهدي: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت 1980، ص 147.

4- العامري محمد البشير حسن راضي، المرجع السابق، ص 128.

محفوظا ما زال يحتوي على نوادر وفرائد تكاد تنفرد بها مكتبة الإسكوريال، بالإضافة إلى كتب الطب والفلسفة والفقه والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والحديث وغيرها من المعارف فإن هذه الخزانة تضم نسخة من كتاب "المحصل" لابن خلدون بخط يده.

وهذا مما كانت تفتخر به خزانة زيدان السعدي. وتحتفظ كذلك على نسخة فريدة في العالم من كتاب "المصون في الأدب" لأبي أحمد العسكري المتوفى في عام 382 هـ، وقيمة هذا الكتاب تتجلى في كونها النسخة الوحيدة في العالم والتي أكد محققها عبد السلام هرون في عام 1960م بالكويت نسبتها لأبي أحمد العسكري ولم ينسبها له واحد من مترجميه، وكذلك "تفسير القرآن" الذي وضعه زيدان السعدي اعتمد فيه على "تفسيري" ابن عطية 542 هـ والزمخشري 538 هـ ومن النوادر كذلك "مختصر كتاب الحيوان" للجاحظ كان عزيزا ثم وجد أي كان في حيز المفقود فأثبت محققه نسبته لابن منظور (711 هـ) صاحب "لسان العرب" الذي كان مشهورا باختصار الكتب .

واستمرت هذه المحاولات منذ عهد زيدان السعدي إلى الوقت الحاضر، ولم يتوقف المغرب عن المطالبة باسترجاعه هذا الإرث الثقافي المسلوب، بكافة الطرق الديبلوماسية والسياسية والترغيبية بأموال وغيرها، وقد شاءت العناية الربانية أن تعود هذه المجموعة الخطية إلى المغرب لا في أصولها ونسخها الأصلية، ولكن في شكل صور مرقمنة بعد غيابها ما يزيد عن أربعمائة سنة. في شكل أقراص مدمجة نذكر منها:

علم النحو ضم نسخة عتيقة من كتاب سيبويه اعتمدها المستشرق الفرنسي درنبورغ في أول تحقيق لهذا الكتاب في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد. وفيها كذلك نسخة نادرة من كتاب الاقتراح في أصول النحو وجدله السيوطي.

أما كتب الطب فإنها تحتوي على مجموعة نادرة من رسائل وكتب محمد بن زكريا الرازي 311 هـ مثل "كتاب البرهان" وكتاب "الطب الروحاني" و"كتاب الخريف والربيع" و"كتاب الشكوك على جالينوس" وكتاب في "أن صناعة الكيميا ممكنة الوجود" و"كتاب الحصى في الكلى والمثانة" وبها "الموجز في الطب" لابن سينا 428 هـ ومصنفات ابن الهيثم صاحب "كتاب المناظر" المشهور وغيرها .

أما علم المنطق فمنها "مفتاح العلوم" للسكاكي مع عدد كبير من الشروح والحواشي التي وضعت عليه منذ القرن السابع للهجرة، وبها "أدب الكاتب "للبطليوسي وغيرها .

وأما كتب الفلسفة فإنها تضم عددا من النوادر مثل كتب أبي بكر محمد يحيى ابن الصائغ كـ"شرح الإيساغوجي" وكتاب "شرائط اليقين" وكتاب "العبارات "و"كتاب القياس" وكتاب "التحليل" وكتاب "البرهان" وكتاب "أسرار الحكمة ."وبها كذلك "شرح كتاب المنطق" لابن سينا وكتاب "الإشارات في المنطق" وكتاب "كنز الأسرار" و"شرح أرجوزة ابن سينا في قواعد المعاني" من تأليف أبي بكر بن بنرود وكتاب "عيون الحكمة" وفي هذه المجموعة مخطوطات معظم ما ألف في الفقه المالكي بدءا "بالموطأ" للإمام مالك وكتاب "المدونة وشروحها" وما كتب حولها كالتنبيهات على مشكلات المدونة وكتاب "التهذيب" للبراذعي في القرن الرابع للهجرة و"مختصر الشيخ خليل" 776 هـ وعدد من شروحه بعضها يعتبر من النوادر. وكتب الحديث كـ"الصحيحين" والكتب الستة وغيرها .

أما كتب التاريخ فيوجد معظم مصادره كـ"تاريخ أبي الفدا" و"تاريخ شهاب الدين الحموي" في ستة مجلدات و"وفيات الأعيان" لابن خلكان و"الصلة "لابن بشكوال وذيولها كـ"التكملة" لابن الأبار و"صلة الصلة" لابن الزبير و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك وغيرها .

خاتمة: من خلال ما سبق يتضح جليا مدى اهتمام الأمراء السعديين بالعلم والعلماء وخزائن الكتب بداية من السلطان المنصور الذهبي ووصولا إلى السلطان زيدان السعدي، وبعد الاستيلاء على الخزانة الزيدانية من قبل الاسبان جرت محاولات عديدة لاسترجاع كتب الخزانة الملكية إلا أنها باءت كلها بالفشل، حتى كانت سنة 2009 حيث سمحت إسبانيا للمغرب بنسخها على الميكرو فيلم، وسلمها ملك إسبانيا إلى ملك المغرب في 16جوان 2013 على إثر زيارة رسمية، وبذلك تكون قد انقضت مرحلة طويلة من البحث لاسترجاع هذه الخزانة، ولعله تبدأ مرحلة أخرى لاسترجاع نفائس الكتب والمخطوطات الأصلية.

قائمة المراجع:

- ✓ الافراني، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1998 م.
- ✓ الإمام، محمد بن ماء العينين الشريف الإدريسي الشنجيطي، الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنجيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط ؛ ج1.

✓ بنين، أحمد شوقي، دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، المطبعة والوراقة الوطنية الحي المحمدي الداوديات، مراكش، ط2، 2004م.
✓ حجي، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977م.
✓ الدغيم، محمود السيد، فهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية في مكتبة راغب باشا، مؤسسة السقيفة العلمية للنشر، جدة، ط1، 2016م .
✓ العامري، محمد البشير حسن راضي، دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن، ط1، 2012م.
✓ الغزال، أحمد بن الهدي، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، 1980م.
✓ الفاسي، محمد العابد ، الخزانة العلمية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط.
✓ الفيروزبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م.
✓ القادري. محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ج1.
✓ الفشتالي.أبي فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط .
✓ كنون عبد الله، رسائل سعدية، دار الطباعة المغربية، تطوان.
✓ المقري،أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد.، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط.
✓ المكناسي، محمد بن عثمان، الاكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
✓ مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، المغرب، عيون المقالات، المغرب، 1994.
✓ بنين، أحمد شوقي،نقل فهرست مخطوطات الإسكوريال إلى اللغة العربية من الوصلات الخفية بين الحضارات في مؤتمر عن «المخطوطات المترجمة» بمكتبة الإسكندرية. 13 جوان 2007م.
✓ خليفة، إدريس، "الفتح الإسماعيلي لمدينة العرائش"، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، العدد 326 شوال-ذو القعدة 1417/ مارس1997م.